تجليات الواقع والخيال في ديوان العباس بن الأحنف

Manifestations of reality and imagination in the poetry of Abbas ibn al-Ahnaf

م. د زينب غازي كريم كاظم
Zainab Ghazi Karim
كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة بابل
hum463.zanab.kazia@uobabylon.edu.iq
college of Education for Humanities / University of Babylon

Keywords: Realistic ,imaginative, poetic text ,Abbas ibn al -Ahnaf
الكلمات المفتاحية : واقع ، خيال ، نص شعري ، العباس بن الأحنف

الملخص:
تمثل ثنائية الواقع والخيال في ديوان العباس بن الأحنف امتزاجًا فنيًّا منسجمًا، عبّر من خلاله الشاعر عن تجربته العاطفية بصدق وإحساس مرهف. وقد نجح في توظيف عاطفته الصادقة مع خياله الرقيق والبسيط، ليبدع نصًّا شعريًّا متوازنًا يتسم بحرارة العاطفة وهدوء التعبير.
ومن اللافت أن خيال الشاعر ظل ضمن حدود المألوف، فلم يتجاوز الواقع إلى الغرابة، بل استثمر هذا الخيال لخدمة العاطفة وتعزيز المشاعر، دون أن يطغى أحد الجانبين على الآخر. وبذلك قدّم العباس بن الأحنف نموذجًا شعريًّا متفردًا، يمتاز برقة الصورة وعمقها، ويجعل المتلقي في حالة تفاعل وانسجام مع النص. ويُعدّ هذا المزج الدقيق بين الصدق العاطفي والخيال المعتدل سمة بارزة في تجربته الشعرية، مما أضفى على شعره طابعًا إنسانيًّا عذبًا، قريبًا من النفس، وسهلًا في التلقي دون افتعال أو تكلف.

Abstract:
The duality of reality and imagination in the poetry collection of al-ʻAbbās ibn al-Aḥnaf represents a harmonious artistic blend through which the poet expressed his emotional experience with sincerity and delicate sensitivity. He succeeded in employing genuine emotion alongside gentle and simple imagination to create a balanced poetic text characterized by emotional warmth and calm expression.
Notably, the poet's imagination remained within the bounds of the familiar, never veering into the realm of the bizarre. Instead, he utilized imagination to serve emotion and enhance feeling, without allowing either element to dominate. In

doing so, al-Abbās ibn al-Aḥnaf presented a unique poetic model distinguished by the delicacy and depth of its imagery, drawing the reader into a state of interaction and harmony with the text.

This precise blending of emotional sincerity and restrained imagination stands as a prominent feature of his poetic experience, endowing his verse with a tender human qualityapproachable, heartfelt, and easy to receive without artifice or affectation.

المقدمة:

يُعَدّ العبّاس بن الأحنف من أبرز الأصوات الشعرية في العصر العباسي التي حافظت على النبرة العذرية في زمنٍ كان فيه الترف والغواية والتصنّع سمتَين غالبَتين على التجربة الشعرية. فبينما انصرف كثير من شعراء عصره إلى التلاعب بالمحسّنات اللفظية، والغوص في تجارب حسّية صاخبة، اختار العبّاس أن ينكفئ إلى عالم داخلي مشحون بالوجدان، متلبّس بالأسى، نابض بالصمت والمكابدة، ليؤسس لنمط شعري خاص به، قائم على العفوية والصدق، بعيد عن الزخرفة، قريب من التجربة اليومية للإنسان العاشق المتألم.

وإن ديوانه لا يُقرأ بوصفه وثيقة غزلية فحسب، بل بوصفه مرآةً شفّافة لواقعٍ متعدّد الأوجه: واقع اجتماعي يُقيد الحبيبة ويمنع اللقاء، وواقع نفسي يُثقِل كاهل الشاعر بالانتظار والخذلان، وواقع شعريّ يفرض عليه الانتماء إلى تقاليد الغزل العذري، مع حرصه على خصوصية صوته. ففي ظل هذا التعدّد، تتكشّف تجليات الواقع في شعر العباس بن الأحنف، ليس بوصفها رصداً مباشراً لأحداث أو أحوال، بل عبر إعادة تشكيل هذا الواقع فنيًّا، وصهره في بوتقة الإحساس الشعري، حتى يتحوّل إلى مادةٍ تعبّر عن الذات وتعكس البيئة في آنٍ معًا.

وقد حرص الشاعر في معظم نصوصه على بناء عالم شعريّ يتراوح بين الحلم والخذلان، وبين الرغبة في القرب والاستسلام للبعد، ليمنحنا تجربة إنسانية مكثفة، تتجاوز في ظاهرها البوح العاطفي إلى الغوص في الواقع المجتمعي الذي يحاصر العاشق، ويمنعه من تحقيق مبتغاه. وهكذا فإنّ الغزل في ديوانه يتجاور مع ملامح الواقع ويتشابك معه: فالحبيبة ليست كائنًا متخيّلاً خالصًا، بل هي صورة للمرأة المقيدة بأعراف مجتمعها، والعاشق ليس صوتًا عابراً، بل ذاتًا إنسانية تصطدم بجدران الواقع وتنكفئ إلى ذاتها.

وتأتي هذه الدراسة لتتبع أبرز تجليات الواقع في ديوان العباس بن الأحنف، من خلال محورين أساسيين: محور نظري ومحور تطبيقي يستعرض مختارات من شعره، محلّلاً المضامين الواقعية والخيالية فيها، والكشف عن الأدوات الفنية التي عبّر من خلالها عن واقعه الخاص والعام، وعن مدى امتزاج الواقع بالخيال، لا كتناقض، بل كتكامل، حيث يتحوّل الخيال أحيانًا إلى وسيلة للهروب من قسوة الواقع، وأحيانًا إلى مرآة تفضحه وتُعرّيه.

إنّ دراسة تجليات الواقع والخيال في شعر العباس ليست غايةً في ذاتها، بقدر ما هي محاولة لفهم أعمق لعلاقة الشاعر بعصره، ولإدراك الطابع الإنساني لتجربته الشعرية، التي ما تزال تحتفظ برنينها الخاص في الذاكرة الأدبية العربية، بوصفها شهادة صادقة على تمزّق الإنسان بين ما يريد وما يقدر، بين الحلم والخذلان، بين الشوق والواقع.

اضاءة عن حياة العباس بن الأحنف (١٢٠–١٩٢هـ / ٧٣٧–٨٠٧م)

النسب والنشأة: ينتمي إلى بني حنيفة (أصله من نجد)، وُلِد في البصرة عام نحو ١٢٠هـ/٧٣٧م، ثم انتقلت أسرته إلى بغداد حيث نشأ وتربّى في بيئة مترفة.

البيئة والتربية: نشأ وسط ترف ونعيم الدولة العباسية، فتكوّن ذوقه الأدبي في أسرة شاعرية وثقافية.

مركزه الأدبي: اشتهر بـ"الغزل العفيف" الرقيق، فكان نموذجًا للعشاق الشرفاء في مجتمع بغداد، رغم انتشار اللهو والمجون بين الشعراء الآخرين.

سمات شخصية: وُصف بأنه أنيق، ظريف، لطيف، حسن الهيئة، وسخي؛ محبوب من الرشيد والخليفة بلا وظيفة رسمية، لكنه كان في قلب الحوارات الأدبية بقوة.

الوفاة: تُوفي في بغداد سنة ١٩٢هـ/٨٠٧م. (١)

الجانب النظري:

١–الواقع

فالواقع هو مجموعة الوقائع والأحداث والظواهر المادية أو المعنوية التي توجد خارج ذهن الإنسان وتُدرك بالحواس أو بالعقل، ويُقابل بذلك الخيال أو الفرض أو التصور المجرد. ويشمل الواقع كل ما هو فعلي، ملموس، معاش أو ملاحظ في الحياة، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، الاجتماعي أو السياسي أو النفسي.

وكل ما يرتبط بالحياة اليومية للناس من مواقف، ومشاعر، وصراعات، وأوضاع اجتماعية أو سياسية، تُجسَّد أو تُصوَّر في النص الأدبي أو الشعري بشكل يعكس صدق التجربة ومطابقة الحياة.

يقول الناقد إحسان عباس:

"الواقع في الأدب لا يعني فقط نسخ الحياة، بل القدرة على تمثّلها وتقديمها بشكلٍ فنّي يكشف جوهرها."(٢)

ويرى شوقي ضيف أن الشعر في العصر العباسي قد شهد تحولًا كبيرًا من التقاليد الجاهلية إلى التعبير عن الواقع المعيش، فقد لم يعد الشعر ميدان مفاخرة وتكلف، بل أصبح أداة تعبير صادق عن الشعور الإنساني، إذ انفتح على حياة الناس، وصوّر آلامهم وأحلامهم، وتناول مظاهر الفقر والبذخ، والصدق في الحب، والمجون، والحياة النفسية والاجتماعية. ويعدّ هذا التحول نتيجةً طبيعيةً لتطوّر المجتمع العباسي، وازدهار المدن، واحتكاك العرب بغيرهم من الشعوب والثقافات.(٣)

فالحديث عن الواقعية في الشعر العباسي نجدها تجلت بوصفها استجابة طبيعية لتحوّلات العصر الاجتماعية والسياسية والفكرية، إذ لم يعد الشعر محصورًا في المديح والفخر، بل صار مرآةً تعكس هموم الناس وتناقضات الحياة الحضرية. فقد عبّر الشعراء عن مظاهر البذخ والفقر، والتفاوت الطبقي، والاغتراب النفسي، والفساد الإداري، كما تجلّت الواقعية في دقة التصوير وصدق العاطفة، وابتعاد بعض الشعراء عن الزخرفة اللفظية إلى اللغة القريبة من الحياة اليومية. ويُعدّ شعراء مثل ابن الرومي وأبي نواس والعباس بن الأحنف نماذج بارزة في تصوير الواقع كما هو، كلّ بحسب زاويته وطبقته الاجتماعية.

ومن هذا قول العباس : (٤)

أيا فوز لو أبصرتني ما عرفتني لطولِ شجوني بعدكم وشحوبي

وأنتِ من الدنيا نصيبي فإن أمتُ فليتكِ من حور الجنان نصيبي

سأحفظُ ما قد كان بيني وبينكم وأرعاكم في مشهدي ومغيب

في هذه الأبيات يعبر العباس بن الأحنف عن أثر الفراق العميق على مظهره الجسدي ونفسيته ويمضي وقت طويل في الحزن لدرجة أن محبوبته قد لا تعرفه، مما يبرز صدق الألم وتأثيره الواقعي. كما يجسد الشاعر محبوبة قلبه كنصيبه الوحيد في الدنيا، متمنياً أن تكون نصيبه أيضاً في الآخرة، مما يعكس عمق ارتباطه بها وتفانيه في حبه الذي يتجاوز الحياة. ويؤكد كذلك على وفائه الدائم لها، محافظاً على العلاقة ومشاعرها في

كل زمان ومكان، مما يبرز الإخلاص كقيمة ثابتة تظل حية رغم الفراق. بهذا، يوظف الشاعر لغة صادقة ومعاناة حقيقية لتجسيد تجربة حب وفقدان ملموسة وحقيقية.

ونستدل على واقعية الشاعر من خلال النص التالي : (٥)

جَرَّبتُ مِن هَذهِ الدُّنيا شَدائِدَـهَا ما مَرَّ مِثلُ الهَوى شَيءٌ عَلى راسي

عَذابُ هاروتَ في الدُّنيا وَصاحِبِهِ لَذٌّ مِن حُـبِّ بَعضِ النّاسِ لِلنّاس

في هذه الأبيات يصور العباس بن الأحنف تجربة الشدائد التي مر بها في هذه الدنيا، مؤكداً أن أعمق وأقسى ما أصابه هو عذاب الحب، حيث لا شيء يفوق ألم الهوى في تأثيره عليه.

ويستعين الشاعر بصورة عذاب هاروت وماروت، وهما رمزان للفتنة والعذاب الإلهي في التراث الإسلامي، ليُبرز أن هذا الحب رغم ألمه يحمل حلاوة وشغفًا لا يُضاهى، وهو شبيه بعذاب جميل ومُغرٍ.

فوظف الشاعر هذه الصورة لتقوية تأثير العذاب، وإبراز التناقض بين الألم واللذة في الحب، ومنح التجربة بعدًا أسطوريًا ودراميًا يعكس عمق معاناة العاشق، ويؤكد جدية ما يعيشه من اختبار قاسٍ ومصيري. يظهر هنا الصراع الداخلي بين الشوق والألم، مما يعكس صدق التجربة الإنسانية في الحب بكل ما فيها من ألم ومتعة

كذلك قوله: (٦)

أَلَيْسَ مِنَ الْبَلِيَّةِ أَنْ أَرَانِي يُعَذِّبُنِي بِكُم شَوْقٌ طَوِيـلُ

وَأَنِّي فِي بِلَادِكُمُ مُقِيـمٌ وَلَيْسَ إِلَى لِقَائِكُمُ سَبِـيلُ

وَأَنَّ الشَّوْقَ قَدْ أَبْلَى عِظَامِي وَلَيْسَ يَزُورُنِي مِنْكُم رَسُولُ

فَإِمَّا مِتُّ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكُم فَقَبْلِي مَاتَ مِنْ شَوْقٍ جَمِيل

في هذه الأبيات يعبر العباس بن الأحنف عن واقع مرير يعيش فيه العاشق المبتعد عن محبوبته، حيث يصور شدة الشوق وألمه كعذاب دائم يعذبه دون رحمة، فهو في بلاد المحبوبة لكنه عاجز عن لقائها بسبب الظروف التي تحول بينهما.

يُظهر الشاعر أثر هذا الفراق على جسده وكيانه، إذ أُبلت عظامه من طول الاشتياق، وحال دون وصول أخبارها إليه. يعكس النص واقعية الفقد وعمق الحزن الذي يعيشه العاشق حين يصبح الاشتياق سببًا في

تدهور حاله الجسدية والنفسية، حتى أنه يراها موتًا جميلاً يُفضّل أن يسبقه على الحياة بلا لقياها. تتجلى الواقعية في النص من خلال تصوير الشاعر لحالة الاشتياق الشديد والمؤلم بطريقة ملموسة وحسية، مع توضيح عجزه الفعلي عن لقاء محبوبته رغم وجوده في بلادها، وغياب وسيلة تواصل تؤدي إلى تضخيم المعاناة.

بهذا يكون النص بعيدًا عن المبالغات الخيالية، وينقل تجربة إنسانية حقيقية وصادقة تعبّر عن ألم الحب والبعد بشكل واقعي ملموس، مما يجعل القارئ يتعاطف مع المشاعر والألم الحقيقي الذي يعيشه العاشق .

وبنفس الصدد يقول : (٧)

كنتُ أغنى الناسِ كلّهمُ عنكِ لولا الشؤمُ والنـكدُ

إنما أبكي على جـــسدٍ قد براهُ الشوقُ والكمدُ

لا يَرَى للعـــيشِ لذّةً كلّما طـــالَ به الأمد

نجد في هذه الأبيات يعبّر العباس بن الأحنف عن تجربة حبّ موجعة تجلّت في صورةٍ من الانكسار النفسي والجسدي؛ إذ يبدأ بادّعاء الغنى عن الحبيبة، لكنه ينهار أمام ثقل (الشؤم والنكد) وهما رمزان للمعاناة التي جلبها الحب، ليكشف أن بكاءه ليس على فراقٍ عارض، بل على جسد أنهكه الشوق وأذابته الأحزان. ويُوظّف الشاعر هنا صورة الجسد البالي ليُجسّد عمق الأثر العاطفي، فالوجدان لم يعُد وحده المتألّم، بل الجسد أيضًا، مما يمنح تجربته صدقًا مضاعفًا.

كما تتصاعد نبرة الألم في قوله: (لا يرى للعيش لذّةً) لتكشف عن فراغ الحياة من المعنى، فكلما طال العمر زادت قسوته، وهنا تتجلّى النزعة التشاؤمية التي تُميز واقع العباس الشعري، حيث يصبح الحبّ عبئًا نفسيًا وعلّةً جسدية، لا ملاذًا أو خلاصًا.

وقد وظّف الشاعر عنصر الواقع بدل الخيال لأنه لم يكن معنًى متخيلًا عنده، بل تجربة حقيقية ومعاناة ملموسة، فشعره صدى لذاته المعذّبة، وبدلًا من أن يفرّ إلى الخيال كما يفعل بعض الشعراء، آثر أن ينقل صدق العاطفة وعذابات الجسد بواقعية مؤلمة، لتكون الكلمة مرآةً أمينة لحالته الوجدانية

أما قوله : (٨)

أيذهبُ هذا العيدُ عنّي وليس لي مع الناسِ فيهِ لا سرورٌ ولا فرحُ

وكيفَ يطيبُ العَيشُ والعَينُ بالبُكا موَكَّلَةٌ والقلبُ بلحظٍ قد جُرِحُ

في هذه الأبيات الواقعية، يصوّر العباس بن الأحنف العيد – رمز الفرح والبهجة الاجتماعيّة – على أنه لحظة تفجرٍ للحزن الداخلي، قائلاً (أيذهب هذا العيد عنّي... لا سرورٌ ولا فرح)

يمتد مشهد الحزن إلى دهليز الوجدان والجسد، حيث الإنسان العين تحولت إلى بُؤرة بكاء، والقلب محتمى بلحظات ألم عميقة. في هذا السياق الواقعي، يصور الشاعر حالته بدون زينة أو تصنع: العيد بالنسبة له لا يحمل إلا ثقل الفقد والوجدان المجروح؛ فالحياة غير طيبة، والفرح غائب، بينما العين يمنة البكاء. والعباس هنا يقدّم نموذجاً صادقاً لوجع شخص يعيش وسط الأمّة لكنه مغترب عن فرحهم، مؤكدًا صدق تجربته الشعورية: الألم حاضر، والسرور مفقود، والواقع النفسي هو مناطُ شعره، دون لجوء إلى الرموز البعيدة أو الخيال.

٢- الخيال

يرى إحسان عباس أن الخيال الشعري يجب أن ينبع من تجربة إنسانية حقيقية ويعكس نبض الحياة والروح، فلا يكون مجرد خيال صناعي جامد أو زخرف لغوي بلا معنى. الخيال الحقيقي يعمّق الشعر ويجعله يرتقي من مجرد وصف سطحي إلى التعبير عن جوهر الحياة والوجود، ويمنح الشعر عمقًا فكريًا وروحيًا ينبثق من نبض الحياة الحقيقية.(٩)

ويُعتبر الخيال الشعري عند شوقي ضيف جوهر الأدب، إذ يُعدّ من أقوى وسائل بناء الصورة الأدبية، متفوقًا حتى على النظم. يرى أن الخيال الجيد هو الذي يجمع بين حقائق الوجدان وانفعالاته ويربط بينها ربطًا محكمًا، بحيث لا ينكره الحس ولا العقل. أما الخيال الذي يشطح ويأتي بالأوهام والمجالات، فإنه يبتعد عن الواقع ويصبح الصورة مبهمة شديدة الإبهام، مما يُفقدها وضوحها واستقامة فهمها. (١٠)

أما الناقد حميد لحمداني يرى أن الخيال في الشعر ليس مجرد تزيين لغوي أو هروب من الواقع، بل هو أداة فنية تساعد الشاعر على تجسيد الواقع بعمق أكبر، وتقديمه بصورة تتجاوز الحضور المادي المباشر إلى معانٍ رمزية وإنسانية. الخيال هنا يعمل على إثراء الصورة الشعرية وجعلها أكثر قدرة على التعبير عن

التجربة الإنسانية، فهو جسر يربط بين الواقع والحلم، وبين الملموس والمعنوي. ويؤكد لحمداني أن توازن الخيال مع الواقع هو مفتاح نجاح الصورة الشعرية، فلا يكون الخيال جامدًا بعيدًا عن الواقع، ولا واقعًا جافًا خاليًا من الإبداع.(١١)

لذا نجد الشعراء على مدى العصور بضرورة توظيف الخيال الشعري لتوسيع آفاق التعبير وإضفاء عمق جمالي ووجداني على تجربتهم الشعرية، فالخيال يُمكّنهم من تصوير الواقع بصورة تتجاوز الوقائع الحسية المباشرة إلى معانٍ رمزية وإنسانية أعمق. في الشعر العباسي، مثلًا، توظّف الخيال للتعبير عن الوجد والحب والحنين والاغتراب، فصار وسيلة لفهم النفس البشرية وتوثيق العلاقات العاطفية بشكل أكثر شفافية وعذوبة.

فشاعرنا نموذجًا بارزًا في هذا السياق فقد اعتمد خياله على تصوير الطبيعة والصور الحسّية البسيطة ليعبر عن الحب العفيف والمشاعر النبيلة، فكانت صورته الشعرية واضحة وصادقة، بعيدًا عن التكلف والمبالغة، مما جعل خياله متجانسًا مع الواقع ويعزز صدق التعبير.

إذ يقول الشاعر في هذا الصدد: (١٢)

ريحانتي واختلست من يدي ... أبكي عليها آخر المسند

كانت يدا كانت بها قوتي ... فاختلس الدهر يدي من يدي

في هذا النص يستعين الشاعر بعنصر الخيال لتمثيل تجربة عاطفية موجعة(ريحانتي) ليست مجرد لفظ حُب، بل صورة حسية ترمز للمحبوبة، وتجعلها شيئًا يُشمّ ويُعاش ويُلامس برقة، ثم يفتح فعل (اختُلِستِ) بابًا للخيال الفجائي، فالفقد هنا لم يكن متدرجًا، بل أشبه بعملية سرقة مباغتة، فيها نوع من الظلم وهذا ما يكرّسه لاحقًا حين يُسند الفعل للدهر.

فالخيال هنا يأخذ شكلاً تأمليًا نفسيًا ووجدانيًا. والبكاء عند الشاعر في هذا الموضع ليس مجرّد انفعال، بل فعل رمزي يدلّ على انتهاء الدور الحيّ للحب، وبقاء أثره فقط في الذاكرة والدموع.إنه بكاء نهاية، أشبه بحزن ما بعد الموت، لا بكاء الفقد المؤقت .فقوله (كانت يَدًا، كانت بها قوتي) إذ هنا تتحوّل المحبوبة من كائن خارجي إلى جزء من الجسد. وهذا التجسيد العاطفي العميق يُعد من أبرز خصائص الخيال الشعري في شعر العباس فالمحبوبة لم تكن فقط مصدر حب، بل كانت مصدر القوة، والاستمرار، والاتزان. وهذا النمط من التصوير يُعبّر عن حالة من الانمحاء بين الذكر والأنثى، بين العاشق والمعشوق، حيث تتماهى الأنا بالآخر

الخيال في النص اعلاه يصل إلى ذروته : فقدان الحبيبة = بتر جزء من الذات، والفاعل هو (الدهر) لا الحبيبة نفسها.

هذه الصورة تُعمّق البعد التراجيدي وتُظهر كيف يهرب الشاعر من تفسير الفقد بعقلانية، ويلجأ للخيال لتأطيره ضمن السياق .

ونجد الخيال يتجلى في نص اخر : (١٣)

تبدت لنا إذ غابت الشمس والتقت　　على الأرض من أقطارها ظلماتها

فأشرقت الدنيا جميعاً بوجهها　　بليــلةِ سعدٍ لا يضل سُراتها

وسارت كثيراً جلسُها ورفيقُها　　فقطــعَ قلبي لمحُها والِتِفاتُها

يناجونَها دوني فيا لكِ حسرَةً　　تُعَذّبُ نفســاً جمّةً حسَراتُه

الشاعر في هذا النص يستحضر أبياتًا من الخيال مثل استحضار الظلمة والإشراق الطبيعي للدلالة على حال عدم وجود الحبيبة ثم حضورها ومن ثم تجسيد الحبيب كقمر أو مصدر ضياء، يسلط الضوء على تأثيره النفسي على القلب.فالخيال الحركي في تجسيد سيرها وتحركاتها يثير الرؤية البصرية والاستجابة العاطفية.

وتقطيع القلب و(الحسرة) والشكوى الداخلية تمثل خيالًا تألقيًا يسهم في إعادة بناء معاناته في فضاء شعري متجانس

الشاعر يستخدم اللمح والالتفات لتعميق التجربة المثيرة: – **قطع قلبي لمحها** – فعل تخيلي يعكس تمزق القلب تأثرًا بنظراتها فيبرز الشاعر الخيال التأليمي في تحوّل جمالها إلى مصدر عذاب، ينغص عليه أعماق ذاته .

ونجده في قوله: (١٤)

بَلِّغي يا رِيحُ عَنَّـا　　أَهْلَ بَغْدادَ السَّلاما

بِأَبي مَن حَرَّمَ النَوْمَ　　عَلَى عَيْنَيَّ وَنـاما

بِأَبي مَن أَضْرَمَ القَلْبَ　　بِاشْـتِيَاقًا وَهُيـاما

يبدأ الشاعر بنداء الريح لبلاغ السلام لأهله في بغداد، فيستعين بالرياح كوسيط شعري رمزي ينقل رسالة الحنين والحب عبر المسافات فالخيال الشعري هنا يضفي على الريح صفة الإنسان الحامل للأخبار، ويجعل الشاعر وسائط الطبيعة جزءًا من المشهد العاطفي.

ويتجلى عنصر الخيال العاطفي المرتبط بالسهر والاشتياق بقوله

(حرم النوم على عينَيَّ وناما)

(الذي أضرم القلب اشتياقًا وهيامًا)

هويصورحاله مستيقظ متألم. فالخيال يكشف التفاوت الحزين بين من يعيش في حالة الحب ومن غاب أثره.

فالخيال هنا يتركز حول فكرة التعلق المتعطش، بحيث تتحول العين إلى مركز حب وشوق

ومن ثم يعمد لتجسيد الشوق بكلمات حية (أضرم، مشغوف، مستهام)، ليجعل القارئ يعيش الإحساس النفسي لا يقرأه فقط.

ومن قوله : (١٥)

يا شمسَ بغدادَ إنَّنـــي دنِفُ	إذ ماتَ منكِ الوِدادُ واللُطْفُ
كلِفتُ بالشمسِ من رآى رجُلاً	بالشمسِ يا قومُ قلبُهُ كلـــفُ
قد قلتُ لما فقدتُ كتبـــــكم	كـــعهدِ كم والزمانُ مؤتلـفُ
يا ليت أنَّ الرياحَ جاريـــــةٌ	تسعـى بحاجاتِنا وتختلـف

يبدأ الشاعر باستعارة كوكب الشمس لتصوير المحبوبة، فيقول: يا شمسَ بغدادَ وهذه استعارة ذات خيال شعري عميق، حيث تتحول المحبوبة إلى مركز إشراق، تضيء وتدفئ وتؤلم إذا غابت.

فالخيال هنا يجعل من الحبيبة كائناً كونيًا، لا يُرى بعين العاشق فحسب، بل تراه مدينة كاملة (بغداد)وعندما "مات منها الوداد واللطف"، انطفأت الشمس في قلبه، أي خيّم عليه ظلام نفسيّ.

فعمد الى تحويل تجربة الفقد العاطفي إلى ظاهرة طبيعية كبرى، يُسقِط فيها الذات على الطبيعة، فيتكامل الجرح الشخصي مع الكون والشاعر يوظف الخيال هنا بوصفه وسيلة وجودية للبقاء فيحوّل الطبيعة (الشمس، الريح) إلى شخوص فاعلة في قصة الحب و يجعل الرسائل والغياب أحداثًا كونية، لا مجرد وقائع شخصية ويضع الذات العاشقة في مواجهة اللامعقول العاطفي، فلا يجد غير الخيال ملجأ لفهم ما لا يُفهم: لماذا غابت؟ لماذا انقطع الود؟ لماذا لا تصلني كلماتها؟ فالخيال الشعري لدى العباس بن الأحنف في هذه الأبيات ليس ترفًا بل هو ضرورة شعورية تحمي القلب من الانهيار، وتمنح اللغة طاقة النجاة

ونجد توظيفه للخيال يكمن بقوله: (١٦)

إني طربتُ إلى شمسٍ إذا طلعتْ كانت مشارقُها جوفَ المقاصيرِ
شمسٌ ممثلةٌ في خلق جاريةٍ كأنما شخُّــها طَيُّ الطوامـــــيرِ
ليست من الإنس إلا في مناسبةٍ ولا من الجنّ إلا في التصاويرِ

يوظف العباس بن الأحنف الخيال في هذه القصيدة بوصفه أداة فنية وعاطفية تعبّر عن تجربة حبّ لا يُحتمل وصفها بالوسائل العادية. فالقصيدة تنفتح منذ مطلعها على استعارة كبرى تمثل الحبيبة في هيئة "شمس مشرقة"، ويستمر الخيال الشعري في تشكيل صورة متخيَّلة للمرأة التي لم تعد بشرًا، بل كائناً فائقًا للجمال والتصوّر

فيلجأ الشاعر إلى الخيال هربًا من واقع عاطفي موجِع، فلا يصف الحبيبة بصورتها الواقعية، بل يحلّق بها في فضاءٍ رمزي يجعلها شمسًا لا تغيب، ومخلوقًا لا ينتمي إلى البشر. وهكذا يتحول الخيال إلى ملاذ نفسي يعيد للشاعر توازنه أمام الهجر أو الفقد.ومن خلال الخيال، يصوّر الحبيبة بوصفها كائنًا سماويًا يتجاوز حدود الطبيعة البشرية، فجعلها "شمسًا"، ثم صورةً ثم جسمًا من لؤلؤ، ما يعبّر عن افتتانه بجمالها إلى حد يعجز فيه الوصف المباشر عن الإحاطة به، فلا يجد غير التخييل وسيلة لتوصيفه بدمج صفات الشمس، والطوامير، والتصاوير، واللؤلؤ، يتحول الجمال الأنثوي في القصيدة إلى بنية رمزية أسطورية. فالمحبوبة لا تُرى كما تُرى النساء، بل ككائن خرافي بين الإنس والجن، حضورها يشبه الحلم أو السراب.

اذاً الخيال في هذه الأبيات لا يؤدي وظيفة تزيينية فحسب، بل يمنح اللغة الشعرية عمقًا دلاليًا وجماليًا، إذ يحررها من الوصف السطحي، ويُنتج صورًا جديدة ذات طابع بصري–رمزي، تتيح للمتلقي أن يعيش التجربة لا أن يسمعها فقط.

كذلك يتجلى عنصر الخيال في قوله: (١٧)

إنَّ شمسًا أبصرتها فوق سطح غادَرَتني بسهم طرفٍ قتيـــــلًا
أشرقت في المصقَّلاتِ فيا من أُبصرُ الشمسَ تلبسُ المصقولا
علِّليني يا فوزُ بالوصلِ إنـــــي لا أُراني أعيــشُ إلا قليـــــــلا

هنا يحاكي الشاعر وجه المحبوبة بالشمس؛ حيث ظهرت مشرقةً وجذّابة، لكن أطلقها ليُرمز إلى انتقالها من مكانه وبشكل فجائي (سهم طرفٍ قتيل) فيستخدم الخيال ليتحقق التفاعل البصري والعاطفي مع غيابها وحضورها في آنٍ واحد فالخليط بين الضوء والرقة يقول: أشرقت في المصقَّلات وهنا الخيال الشعري يربط

المصقَّلات (وهنّ الصوان أو المرآة) بالصورة المعكوسة للحبيبة، مما يدل على أنها تضيء في فضاء تأملي، وتثير في الشاعر افتتانًا يشبه رؤية الشمس تلبس المرآة تجربة بصرية ورمزية في آن واحد

لذلك نلحظ التجسيد البصري: الشمس ترمز للحبيبة، والمصقَّلات تنقل حضورها البصري المؤثر.

فالخيال الشعري عند العباس بن الأحنف هنا لا يعبر عن الفقد شكليًا، بل يصوغ الواقع العاطفي في فضاءات رمزية تُحاكي الشعور وتفعّله في النفس. يجمع بين الصور السمعية والبصرية والذهنية ليخلق تجربة شعرية دقيقة، ممتدة في الذاكرة العاطفية .

الخاتمة:

- تناول هذا البحث ثنائية الواقع والخيال في ديوان العباس بن الأحنف، كمدخل رئيسي لفهم طبيعة تجربته الشعرية العذرية التي تميزت بالصدق العاطفي والبساطة اللغوية، بعيدًا عن التكلّف والمبالغة. يركز البحث على تحليل النصوص للكشف عن حضور الواقع النفسي والمعاش، إلى جانب دور الخيال في بناء الصور الشعرية، مع التركيز على آليات المزج بينهما.
- يُظهر البحث جلياً أن العباس بن الأحنف يستند لتصوير الواقع العاطفي بدقة متناهية، ليبتعد احياناً بالإفراط الخيالي، وبذلك نجد أن أغلب نصوصه عبارة عن معاناة حب فردية يائسة، تتجلّى في مشاعر الاغتراب، والقلق، والحزن، كما ذكرنا في مشهد تصويره للعيد وقتًا للفرح عند الآخرين لكنه زمن حزن له، أو وصفه لجسد أنهكه الشوق والكمد.
- نلحظ أنّ الخيال لا يغيب عن ديوانه، بل يتجلى كأداة لتكثيف الإحساس وللهروب المؤقت من مرارة الواقع، من خلال صور حسيّة واستعارات خفيفة تدعم التعبير الشعري دون أن تفسد صموده الواقعي.
- يبرز في البحث مفهوم التجانس بين الواقع والخيال، حيث ينسجم الخيال مع الواقع في ديوان العباس بشكل متكامل يحقق وحدة فنية ونفسية، فلا يُغني الخيال عن الواقع ولا يُثقل عليه، بل يتكاملان لتقديم تجربة شعرية حقيقية تعكس صراعات العاشق الداخلية. هذا التجانس يجعل النص الشعري يعكس حالة وجدانية عميقة، في ذات الوقت التي يحافظ فيها على جمالية اللغة وعمق التعبير.

- نخلص إلى أنّ ديوان العباس بن الأحنف يرتكز على واقعية عاطفية خالصة، تُعبر عن المعاناة اليومية للعاشق، وتوظف الخيال بحدوده الدنيا لخدمة التعبير وللهروب من واقعه، مما يمنحه تفرّدًا في بيئة شعرية غالبًا ما تميل إلى التخييل والمبالغة، بينما هو حافظ على الصدق والبساطة، مع بناء شعري متماسك

الهوامش :

١- ينظر :الموسوعة العربية، المؤلف: هيئة الموسوعة العربية – إشراف علمي من مجمع اللغة العربية بدمشق

الناشر: هيئة الموسوعة العربية، دمشق – سوريا ،المجلد الثاني عشر ٢٠٠٨: ٧٧٥

٢- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إحسان عباس، ، دار الثقافة،ط١ ،٢٠٠٠ ، بيروت: ٣٢٥

٣- ينظر: العصر العباسي الأول ، شوقي ضيف، دار المعارف،ط١ ، القاهرة ، ١٩٧٠: ٤٤٠

٤- ديوان العباس بن الأحنف أبو الفضل العباس بن الأحنف ،شرح وتحقيق د. عاتكة الخزرجي ، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٤م:٦

٥- المصدر نفسه:١٦٠

٦- المصدر نفسه:٢١٩

٧- المصدر نفسه:٩٥

٨- المصدر نفسه:٧

٩- ينظر : فن الشعر، إحسان عباس،ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٣: ١٤٤

١٠- ينظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف، مكتبة مدرسة الفقاهة، ج/١ ، ٥٢٢

١١- ينظر: الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم، حميد لحمداني، دار المعارف، بيروت، ١٩٨٥: ٧٢.

١٢- ديوان العباس بن الأحنف أبو الفضل العباس بن الأحنف ،شرح وتحقيق د. عاتكة الخزرجي ، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٤م:١٠٧

١٣- المصدر نفسه:٦٤

١٤- المصدر نفسه: ٢٣٨

١٥- المصدر نفسه:١٨٨

١٦- المصدر نفسه:١١٣

١٧- المصدر نفسه:٢٢٨

المصادر:

- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إحسان عباس، ، دار الثقافة،ط١ ، بيروت – لبنان، ٢٠٠٠
- ديوان العباس بن الأحنف أبو الفضل العباس بن الأحنف ،شرح وتحقيق د. عاتكة الخزرجي مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٤م
- العصر العباسي الأول ، شوقي ضيف، دار المعارف،ط١ ، القاهرة ، ١٩٧٠
- فن الشعر، إحسان عباس،ط٣، دار الثقافة للنشر ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٣
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف، مكتبة مدرسة الفقاهة للنشر ، ج/١ ،١٩٦٥
- الموسوعة العربية، المؤلف: هيئة الموسوعة العربية – إشراف علمي من مجمع اللغة العربية بدمشق ، الناشر: هيئة الموسوعة العربية، دمشق – سوريا ،المجلد الثاني عشر ٢٠٠٨
- الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم، حميد لحمداني، دار المعارف للنشر، بيروت، ١٩٨٥.